طليلة والإسكندرية: فنارا الإنسانية

إثر سقوط الإمبراطورية الرومانية دخلت أوربا مرحلة العصر الوسيط. وكانت في تلك الفترة مجزأة إلى إقطاعات، تغرق في الجهل وعدم الإطلاع على الإنجازات العظيمة لشعوب العصور القديمة.

أما علوم الحضارة الإغريقية وحضارة وادي الرافدين والحضارة المصرية والفارسية والهندية، التي امتزجت في ما ندعوه اليوم بالثقافة الهيلينية فقد تمّ الحفاظ عليها في بيزنطة، ومن قبل ذلك في الإسكندرية وبيرغامو وأنطاكية.

لقد نجحت مراكز المعرفة هذه، قبل أفولها النهائي، في نقل تراثها إلى مناطق أخرى وثقافات أخرى. وبتتابع القرون وتوالي الأحداث أخذت تصل إلى أوربا لتحدث ثورة في الطب والرياضيات والفنون وفي الفكر عموماً. وكان عصر النهضة يدنو وقد سبقته مظاهر استعادة التراث الثقافي في كل صقلية ونابولي وتارانتو وجيرونا وطليطلة.

وقد اتصل العرب من خلال توسعهم في القرن السابع بالعديد من الثقافات كالهندية والفارسية، وبشكل خاص بالإمبراطورية البيزنطية التي من خلالها تمكنوا من الاتصال بالثقافة الكلاسيكية الإغريقية المحفوظة هناك.

وهكذا فقد درسوا وترجموا الكلاسيكيين واستمروا في العمل البحثي للحضارة الهيلينية ليضيفوا نتاجات جديدة. وكان هذا الجهد الثقافي للاسلام قد وصل الى شبه الجزيرة الايبرية في خواتم القرن الثامن من خلال السلالة الاموية.

ثم حلت ممالك الطوائف محل الخلافة في قرطبة. وفي عام ١٠٥٠ غدت طليطلة واحداً من المراكز الاكثر اهمية. وحكم فيها الخليفة المامون.

كان هذا الرجل يسعى لتقليد سميّه الخليفة المأمون في بغداد الذي عاش في القرن التاسع والذي كان أسطورياً في رعايته العلوم والفنون.

وهكذا أحاط الملك المأمون نفسه في طليطلة باقصى ما استطاع من العلماء والحكماء، وانشأ مكتبة كانت الاكثر تقدما في عصره، وقد ضمت الكتب والمجلدات القادمة من المكتبة العظيمة في قرطبة التي ذاع صيتها أيام كان يرعاها بنو أميّة.

وعندما استسلمت طليطلة لالفونسو السادس عام ١٠٨٥ ، وقف المسيحيون مذهولين إزاء جمال وثقافة تلك المدينة العربية. اذ وجدوا فيها اعمالاً تتناول موضوعاتٍ جديدة لم تنشر من قبل ولم تكن معروفة بالنسبة لهم. وهكذا على سبيل المثال فقد دهشوا لوجود كتب الطب، ككتب إبن سينا حيث شُخّصت أمراض واقترحت علاجات لها وهو أمر لم يكن معروفا لديهم.

ومع حكم الفونسو السادس تحولت طليطلة الى عاصمة اوربا للثقافة وراح العلماء يحجّون اليها من كافة أنحاء القارة إذ اجتذبتهم إليها من خلال كنوز الكتب المودعة فيها. وكانوا يسعون الى نقل نسخٍ وتراجم من الاعمال المحفوظة في مكتبة طليطلة ليحملوها معهم الى بلاطاتهم وأديرتهم أو جامعاتهم في الدول التي أتوا منها. وقد عمل هؤلاء العلماء مع المترجمين اليهود والمستعربين الذين يعملون هناك كمجموعة واحدة تعكف على مهمة واحدة، مما خلق مصطلح (مدرسة طليطلة للمترجمين) هذا المصطلح الذي أوجده (أمابل جوردان) في القرن التاسع عشر، مع أن تلك المدرسة لم توجد قط كحيز مادي او كمؤسسة ذات كيان.

وكان البادئون الحقيقيون في عمل الترجمة ذلك هم: بيدرو الفونسو المدعو ايضا موسيه سفاردي و ابراهام إبن عزرا. وقد بلغ ذلك العمل أوجُهُ في النصف الاول من القرن الثاني عشر مع وصول رايموندو دي ساوبيتاد الذي سيصبح رئيس اساقفة طليطلة. وقد تطورت

الدراسات العربية في ذلك العصر وفُـتحت الكنوز الببلوغرافية امام الدارسين وخصوصاً لرجال الدين المسيحيين.

وقد تعايش في المدينة منذ العصر القوطي الغربي، كل من العرب والمسيحيين ومجموعة من اليهود المثقفين التي توسعت في السنوات الاخيرة مع وصول العلماء القادمين من قرطبة واشبيلية الذين التجأوا الى طليطلة هرباً من التزمت الديني للموحدين، وقد نقلوا معارفهم في اللغتين العربية والرومانثية- الإسبانية القديمة- الى الرهبان والعلماء الاجانب.

وبهدف ترجمة عملٍ ما في ذلك العصر كان اليهودي او المستعرب يقوم بقراءة النص باللغة العربية ثم يترجمه الى الرومانثية- الإسبانية القديمة- وبعد ذلك ينقله أحد المتخصصين في اللغة اللاتينية الى اللاتينية.

وبهذه الطريقة نُقلت اعمال كبرى من لغة الى اخرى ومن ثقافة الى اخرى. ففي الفلسفة على سبيل المثال نقلت نصوص شُراح ارسطوطاليس، كابن سينا وابن رشد، وفي الطب نقلت اعمال أبي قراط وجالينوس، وفي الرياضيات اعمال اقليدس والخوارزمي.

ومن خلال عملهم ذاك وصلتنا اخبار عن كثير من اولئك المترجمين ومنهم: دومينغو غوندي سالفو وخوان إسبانو اللذان ترجما كتب الفلك والتنجيم والطب فضلا عن تأليفهم الكتب القيمة. وهرمان اليمان الذي وضع ترجمات عن "الاخلاق" لارسطو وعن إبن رشد أو عن سالتيريو. وكذلك خيراردو دي كريمونا بشكل خاص الذي ترجم واحداً وسبعين عملاً بعد ان تعلم العربية، ومن بينها مؤلفات في الرياضيات والفلك الاغريقيين وفي الرياضيات والفلك العربيين وفي الطب الاغريقي والعربي وفي التنجيم والفلسفة.

في القرن الثالث عشر كان الملك الفونسو العاشر الحكيم، وهو ملك مثقف من طراز الخلفاء المسلمين العظام، قد اصبح راعياً للفنون والعلوم كما انه قام بتأليف نتاجات خاصة به منها

"تاريخ اسبانيا"، وعدد من المؤلفات التشريعية منها "القوانين" ومؤلَّف في التنجيم وكذلك "الالواح الالفونسية" التي استندت بدورها الى ألواح أزاركييل. هذا فضلاً عن مؤلفه "الأغنيات" الذي أشتهر به.

لقد كانت فترة حكمه حافلة بالنشاط العلمي والادبي. وقد أسس المدارس للباحثين والمترجمين في مرسية واشبيلية وطليطلة التي قامت بترجمة اعمالٍ مثل " كليلة ودمنة" و كتاب " إسراء محمد" الذي ألهم، وفقاً للبعض، كتابة رواية " الكوميديا الالهية"، و "بيكاتركس" واعمال اخرى كثيرة.

وفي عصر الفونسو العاشر تغير الاسلوب المستخدم في الترجمات. إذ لم يعودوا ، كما في السابق، يترجمون الاعمال الى اللغة اللاتينية بل اصبحوا ينقلونها الى الرومانثية-أو الإسبانية القديمة. وقد شكل هذا دافعاً عظيما لتطور اللغة القشتالية(اللغة الإسبانية الحالية).

وبعد موت الملك الحكيم بدأت تتراجع عمليات الترجمة ولكن اهم الاعمال كانت قد ترجمت ونسخت ووزعت، وكانت أمكنة اخرى قد برزت واخذت تمارس نشاطاً مماثلاً.

في نابولي وباليرمو أسس الامبراطور فيديريكو الثاني وهو عم الفونسو العاشر مراكز لترجمة المخطوطات الاغريقية والعربية والعبرية الى اللاتينية.

ان تأثير ما سُمي بمدرسة طليطلة للمترجمين كان عظيماً. فبفضل انجازاتها تلك استطاعت جامعات لاول مرة، مثل جامعة السوربون في باريس وجامعة بولونيا ومونبلييه، أن تدرج في مناهجها الاعمال الاصلية للكتاب الكلاسيكيين.

وغدت الكتابات الارسطوطاليسية اساساً للقديس توما الاكويني وللفلسفة الاسكولائية.

وأصبح مؤلَّف إبن سينا "القانون في الطب" المرجع الاساس في الجامعات الاوربية حتى القرن السابع عشر.

وشكّل حساب المثلَّثات الإسلامي والنظام الستّيني أو ماسمي بـــ"نظام الدرجات" والجداول الفلكية للخوارزمي والاعمال التي أشرف عليها الفونسو العاشر نقطة انطلاق لعلم الفلك الأوروبي ومصدراً لأعمال كل من كوبرنيكوس وغاليلو وكبلر ونيوتن.

لقد حمل العرب الى أوروبا، فضلاً عن الإنجازات الهامة، المنهج التجريبي ونظام الارقام العربية (المختلف عن نظام الترقيم الروماني). وكانت حصيلة تلك الاضافات بمثابة خطوة عملاقة صوب عصر النهضة والعلم الحديث. ترى هل بوسعنا ان نتخيل حساباتنا الرياضية بدون الصفر ؟؟

حالياً تسعى (مدرسة طليطلة للمترجمين) الجديدة لكسر الحواجز الفكرية واللغوية القائمة ما بين العالم العربي والغرب.

إن ظاهرة الإنتشار الثقافي التي تهدف الى التطور البشري كان لها سوابق في الماضي. وهذا ما نستنتجه لو عدنا بالتاريخ الى الوراء بدءاً بطليطلة، مروراً بقرطبة وبغداد، وصولاً إلى الامبراطورية البيزنطية، ومن هناك الى المركز الثقافي بامتياز في العصر القديم ونعني به: **الاسكندرية.**

وانطلاقا من الاسكندرية الحالية عبر بحرها الازرق وشوارعها وساحاتها الجميلة ومكتبتها الجديدة نستذكر تاريخ تلك المدينة الاسطورية التي كانت على مدى قرون عدة مركز المعرفة الذي لا يضاهى.

لقد حملت الاسكندرية اسم الاسكندر الكبير ، أول امبراطور عظيم في الغرب.

كان الإسكندر إبنَ فيليبس ملك مقدونيا وورث عن ابيه حلم توحيد الشعوب الاغريقية وغزو بلاد فارس. وقد مضى بذلك الحلم بعيدا إذ امتدت فتوحاته حتى الهند شرقاً ومصر جنوباً.

كان تلميذاً لأرسطوطاليس و كان رجلا مثقفاً الى جانب كونه نابغة كعسكري ورجل دولة. فقد حمل الثقافة والتنظيم الاغريقيين الى كافة الأمم التي غزاها وكان يُدخل وسائل عيش شعوبه وأفكارهم اليها ويحث على الاختلاط والاندماج.

ثم توفي الاسكندر شاباً ليخلف وراءه امبراطورية واسعة بعد أن أسس العديد من المدن. ومن بين تلك المدن مدينة الاسكندرية، الواقعة على الجانب الغربي من مصب نهر النيل التي تعد أهم تلك المدن.

وبعد وفاة الاسكندر تقاسم قادته الامبراطورية.

بَطليموس الاول، زميل الإسكندر في الدراسة ولربما كان أخاً غير شقيق له، وضع يده على مصر لتبتدئ سلالةُ جديدة من الفراعنة استمرت ثلاثة قرون وانتهت بوفاة كليوباترا وغزو الامبراطورية الرومانية.

وقد انتهج بطليموس أسلوب الإسكندر نفسه وسعى الى التوفيق ما بين الثقافة والدين الاغريقيين والمصريين. ومن تلك التوليفة ظهرت على سبيل المثال عبادة إله جديد هو سرابيس الذي اجتمع فيه كل من الإلهين اوزيريس وزيوس.

اختار بطليموس الإسكندرية عاصمةً لمملكتِه وقرّر جعل المدينة أهمَّ مدن العالم من حيث الجمال والثقافة والاقتصاد. وكان أساسُها عبارة عن سطح مستوٍ ذي مربعات، وفيها شارعان

كبيران متعامدان مزينان بالتماثيل والأعمدة. وقد شُيدت بالحجر والصخر والمرمر وكان فيها قنوات في باطن الارض تنقل مياه نهر النيل الى البيوت.

وفي الإسكندرية شيّدَ قبر الاسكندر أو سوما، و "الباسيليا" أو حيّ القصر، وقد ضمّنَهُ متحفاً كبيراً لوسائل العيش الاغريقية وألحقَ به مكتبةً. وربطَ القارةَ بجزيرة فاروس التي تقع على بعد كيلو متر واحد وذلك من خلال رصيفٍ. وعلى مبعدة من ذلك انشأ الميناءَ الذي يُعدّ حتى وقتنا هذا أفضلُ ميناء في مصر والذي جعل من الإسكندرية عاصمةَ البحر الابيض المتوسط التجارية. لقد شكلت المدينة سطحاً مربعاً بشارعين كبيرين متعامدين يضمان التماثيل والاعمدة.

كما شيّدَ في جزيرة فاروس فناراً عظيماً يزيد ارتفاعه عن مائة مترٍ وقد عُدَّ في العصر القديم واحداً من عجائب الدنيا السبع.

اما "المتحف" الذي شُيدَ على غرار معابد وادي الرافدين والمعابد المصرية وكذلك على غرار الليسيه و أكاديمية اثينا، فقد ضمَّ افضلَ علماءِ وشعراء وباحثي العالم المعروف انذاك إذ كانت الدولة تدعوهم ليعيشوا هناك حياةً تخلو من الانشغالات المادية ليكرسوا أنفسهم للحوارِ والقراءة والبحثِ.

وكان صاحب فكرة "المتحف"، على نحو شبه مؤكد، هو ديميتري دي فاليرو الذي عمل حاكماً لأثينا ثم نُفي بسبب التقلبات السياسية فاستقر في القاهرة بعد ان اجتذبهُ بَطليموس الأول.

كان ديميتري دي فاليرو يمتلك معلوماتٍ ببلوغرافيةً هائلة وتجربةً اكتسبها في مدرسة أثينا.

لقد زودتْ مكتبةُ الاسكندرية بجميع الكتب التي تسنّى جمعُها على مر السنين. ولهذا الغرض فقد أُرسلتْ الوفودُ الى شتى الامكنة لاقتنائها أو لنسخها في حالة تعذرِ شرائها، بل ويقال إن السفن التي كانت ترسو في الميناء كانت تُفتشُ وتُصادر جميعُ الكتبِ التي يتمُّ العثور عليها بهدف نسخها لاحقاً.

وكان الجزء الاعظم من تلك الاعمال المقتناة ينتمي الى الثقافة الكلاسيكية الإغريقية ولكن ايضاً كانت هناك كتب تعود الى المعابد المصرية و تتحدث عن تواريخ شعوب اخرى وعن عقيدة زرادشت الإيرانية ونصوصٍ بوذيةٍ قادمة من الهند. وقد تطلبت ترجمة "التوراة" استقدام ٧٢ عالماً عبرياً الى المدينة.

من الصعب أن نعرف عدد الكتب التي أُقتنيت، إذ أن تقديرات المختصين تتفاوت كثيراً، ولكنها تترواح ما بين ٥٠,٠٠٠ الى ٧٥٠,٠٠٠ كتاب. ولكننا نعلم جيداً أن جميع المجلدات كانت مصنفةً حسْبَ الموضوعِ وكانت تتضمن إشارةً الى أصلها ومحتواها.

وكانت هناك قوائمُ مفصلةٌ وبعضها نقديةٌ لتقويم نوعية النصوص ولابرازِ تلك الكتب التي تنطوي على أهميةٍ كبرى.

وإلى جانب دراسة تلك الكتبِ وترجمتِها كانت تخضع لعملية تنقيح وصولاً الى النسخةِ الاكثرَ وفاءً للعمل الاصلي وكانت الشُروحات تُنجز وتستنسخ من مصادرَ مختلفةٍ.

علينا أن نُضيف الى هذه المجموعة الاستثنائية نتاجَ العلماءِ الذي لا يقل اهميةً والذي تجمّعَ قرناً إثر آخر، نتاجَ اولئك الذين عملوا في الاسكندرية ووضعوا أعمالاً سيكون لها أعظمَ الأثرِ في المستقبل:

ففي الرياضيات ابتكر اقليدس الذي عاش حوالي عام ثلاثمئة قبل الميلاد، نظام البديهيات، والتنظيم من خلال النظريات وصرامة البراهين. ومايزال تعريف الفضاء الاقليدي متداولاً في المؤلفات الرياضية الحالية.

اما أرخميدس فقد درس في الاسكندرية. وكان مبتكراً عظيماً للعربات التي كانت تستخدم إبتداءً من الزراعة حتى الحروب. كما أنه حسب الحجوم ومراكز الجاذبية في الاجسام المختلفة، واستنتج عظمة الرقم "Pi". كما أن أعماله في الهيدروستاتية معروفة بفضل نظريته الشهيرة.

وابتكر هيرون الدواليب المسننة والمتحركة والاجهزة القائمة على قوة البخار.

اما إيراتوستينيس فإلى جانب كونه مديراً للمكتبة العظيمة كان فلكياً كبيراً وجغرافياً ورياضياً وفيلسوفاً. وقد رسم خارطة العالم استناداً إلى المسافات القائمة ما بين المدن الاكثر أهمية وبذا فقد كان أولَ من قاس محيطَ الارض.

في حين توّجَ كلاوديو بطليموس في القرن الثاني أبحاثَ حسابِ المثلثات في الاسكندرية من خلال كتابه "المجسطي" في الفلك. إذ ابتكر نموذجاً توضيحياً حول نشوءِ الكواكب والنجوم استمر حتى عصر غاليلو على الرغم من كونه مخطوءاً.

اما جالينوس فقد طور أعمالاً أساسية في فن العلاج والتشريح وقد بقيت ساريةً حتى عصر النهضة.

وكانت هناك إضافات اخرى كثيرة على قدر كبير من الاهمية في حقول اللغة والقواعد وما شابه... وقد بلغ تطور المعرفة آماداً بعيدة جداً في الاسكندرية، ومن الغريب أن نظريةَ مركزية

الشمس وماكنةَ البخار والانجازاتِ المتقدمة في شتى المجالات التي وضعت انذاك تأخرت اكثرَ من الفِ سنة قبل أن تعود لتتواصل العمليات البحثية ولتنجز المزيد من التقدم.

ومع أفول سلالة بطليموس أخذت الاسكندرية بالانحدار. وهكذا في اواسط القرن الاول بعد الميلاد تم ضمُها الى الامبراطورية الرومانية لتواصل نشاطها الثقافي ولكن عبر شتى ضروب المصاعب. وهكذا لاقى العلماء ومتحف الاسكندرية ومكتبتها مصاعب جمة اثرت في نشاطهم بيد أنهم واصلوا حتى القرن الرابع الدراسةَ والتعليمَ ووضعَ المؤلفاتِ، ولكن هذه المرة برعاية الاباطرة الرومان.

واخيراً فقد بدأت المدينة، وبشكل خاص المتحف والمكتبة، تشعر بوطأة التزمت الديني، ولكن حتى يومنا هذا لم يتسنَ تحديد تلك الظروف الخاصة التي ادت الى اختفائها.

أتراه الحريق الذي أضرمه القيصر أثناء حكمِ كليوباترا ؟؟ أم هي تلك القلاقل العديدة التي اجتاحت المدينة لاحقاً ؟؟ أم لعله الأوج الذي بلغته القسطنطينية ؟

ربما لن نعرف ما الذي تدمر أو مالذي تم انقاذه، ولكن المؤكد هو أن الكثير من حكماء الاسكندرية واصلوا عملهم في أمكنة اخرى. وربما ايضاً أن الكثير من نسخهم أو اعمالهم الاصلية انتقلت الى مكتبات اخرى فاستقرت في الامبراطورية البيزنطية، ومن هناك انتقلت الى العالمين العربي والغربي، لتحدث ثورة في اوربا ولتساعد على تطور الجامعات والثقافة الحديثة.

لقد بدأ عصر النهضة الاوربي من خلال اكتشاف النصوص الاسكندرانية في طليطلة. إذ كانت طليطلة المركز الرئيس الذي انتقلت منه العلوم الاغريقية والعربية الى الغرب اللاتيني.

ومابين الاسكندرية وبغداد امتد مركز الاشعاع الثقافي الذي وصل الى سمرقند شرقاً وبلغ ذروته غرباً في طليطلة.

إن هذه الرحلة التي قمنا بها تؤكد لنا أن حضارتَنا انما نبَعت من جهد وتضافر الكثير من البشر الذين ينتمون الى مختلف الشعوب والعصور. ففي بعض الازمنة والامكنة حيث يسود حب المعرفة والتسامح واتساع الآفاق يغدو ممكناً التلاقح مابين الثقافات والبشر، فالمعرفة تنطوي على دافع عظيم يخترق المسافات والازمان ليتيح بهذا الفرصة لتطور الكائن البشري.